MINISTÈRE DE L'ÉDUCATION NATIONALE, DE L'ENSEIGNEMENT SUPÉRIEUR ET DE LA RECHERCHE

ANNALES ISLAMOLOGIQUES

en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne

AnIsl 58 (2024), p. 183-202

Omaïma Hassan El-Mahdi

Al-awbi’a bayna al-tafsīrāt al-ʿilmiyya wa-l-tafsīrāt al-dīniyya : qirā’a fī al- maṣādir al-mamlūkiyya fī al-qarn al-ḫāmis ʿašar al-mīlādī

Conditions d’utilisation

L’utilisation du contenu de ce site est limitée à un usage personnel et non commercial. Toute autre utilisation du site et de son contenu est soumise à une autorisation préalable de l’éditeur (contact AT ifao.egnet.net). Le copyright est conservé par l’éditeur (Ifao).

Conditions of Use

You may use content in this website only for your personal, noncommercial use. Any further use of this website and its content is forbidden, unless you have obtained prior permission from the publisher (contact AT ifao.egnet.net). The copyright is retained by the publisher (Ifao).

Dernières publications

9782724711523	*Bulletin de liaison de la céramique égyptienne 34*	Sylvie Marchand (éd.)
9782724711707	*????? ?????????? ??????? ???? ?? ???????*	Omar Jamal Mohamed Ali, Ali al-Sayyid Abdelatif
??? ???? ?? ??????? ??????? ?? ???????? ???????? ????????????		
?????????? ????????? ?????? ?????? ?? ??? ??????? ?????:		
9782724711400	*Islam and Fraternity: Impact and Prospects of the Abu Dhabi Declaration*	Emmanuel Pisani (éd.), Michel Younès (éd.), Alessandro Ferrari (éd.)
9782724710922	*Athribis X*	Sandra Lippert
9782724710939	*Bagawat*	Gérard Roquet, Victor Ghica
9782724710960	*Le décret de Saïs*	Anne-Sophie von Bomhard
9782724710915	*Tebtynis VII*	Nikos Litinas
9782724711257	*Médecine et environnement dans l'Alexandrie médiévale*	Jean-Charles Ducène

© Institut français d’archéologie orientale - Le Caire

أميمة حسن المهدي*

الأوبئة بين التفسيرات العلمية والتفسيرات الدينية

قراءة في المصادر المملوكية في القرن الخامس عشر الميلادي

ملخص

شهد العصر المملوكي بشكل متكرر، بدءا من أربعينيات القرن الرابع عشر وحتى نهاية هذا العصر في ١٥١٧ م، انتشار أوبئة كثيرة أحدثت دمارا ديموغرافيا واجتماعيا واقتصاديا بالغا. وقد تناول مؤرخو القرن الخامس عشر تفشيها وآثارها المأساوية، كما حاولوا العثور على أسبابها؛ وقد اختلفت تفسيراتهم لظهورها وانتشارها باختلاف خلفياتهم الثقافية والمعرفية.

يورد هذا البحث أهم هذه التفسيرات التي تراوحت بين التفسيرات الطبية والطبيعية السائدة في عصر هؤلاء المؤرخين وتفسيرات رجال الدين من المحدثين والمفسرين والفقهاء المعتمدة أساسا على الأحاديث والآثار المنقولة عن الرسول وصحابته.

الكلمات المفتاحية: المماليك، الأوبئة، الطاعون، الموت الأسود، نظرية الأخلاط الأربعة، القرن الخامس عشر

* أميمة حسن المهدي، حاصلة على شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية من جامعة الزقازيق بمصر، omaima1071@gmail.com.

© IFAO 2026 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net

◆ ABSTRACT

Epidemics Between Scientific and Religious Interpretations: Reading in Mamluk Sources in the 15th Century

The Mamluk era witnessed the spread of epidemics repeatedly from the 1340s until its end in 1517, causing demographic, social and economic devastation. While fifteenth-century historians record their outbreak and their tragic effects, they wondered about their causes. Theirs answers differed according to their cultural and scientific backgrounds.

This research aims to present the most important interpretations that these historians gave of the occurrence and the spread of epidemics, which varied between medical and natural interpretations prevalent in their era and religious ones based mainly on *hadiths* transmitted from the Prophet and his companions.

Keywords: Mamluks, epidemics, the plague, black death, humorism, 15th century

◆ RÉSUMÉ

Les épidémies entre interprétations scientifiques et religieuses. Lecture dans les sources mameloukes au XV^e^ siècle

L'époque mamelouke a connu à plusieurs reprises, à partir des années 1340 et jusqu'à sa fin en 1517, la propagation d'épidémies qui ont causé des ravages démographiques, sociaux et économiques. Les historiens du XV^e^ siècle ont consigné les événements liés à ces épidémies ainsi que leurs effets tragiques. Ils se sont également interrogés sur leurs causes, et leurs réponses ont varié suivant leurs origines culturelles et scientifiques.

Cette recherche vise à présenter les principales interprétations que ces historiens ont données à l'apparition et à la propagation des épidémies et qui ont varié entre les interprétations médicales et naturelles prédominantes à leur époque et celles religieuses, basées principalement sur les hadiths et les traditions transmises par le Prophète et ses compagnons.

Mots-clés : Mamelouks, épidémies, peste, peste noire, humorisme, XV^e^ siècle

* * *

© IFAO 2026 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net

مقدمة

بدأ وباء الطاعون (الموت الأسود) انطلاقا من سهوب الإستبس في آسيا الوسطى، وفي ثلاثينيات القرن الرابع عشر تفشى في الصين (١٣٣١ م[١]) ثم الهند، كما انتشر عن طريق القوافل التجارية والسفن والجيوش والبعثات الدبلوماسية في المناطق الشرقية من العالم الإسلامي والدولة البيزنطية، فظهر في القسطنطينية عام ١٣٤٧ م، وانتشر في موانئ البحر المتوسط فوصل إلى صقلية ومارسيليا والإسكندرية في نفس السنة، ومن الموانئ إلى المناطق الداخلية من شمال أفريقيا وأوروبا عام ١٣٤٨ م. كذلك، انتشر شمالا في الأناضول وفي الجنوب الشرقي إلى الموصل وبغداد بحلول عام ١٣٤٩ م، واستمر في الانتشار في أوروبا حتى وصل إلى موسكو عام ١٣٥١ م؛ وعلى مدار القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، دمر الموت الأسود والأوبئة اللاحقة أوروبا والشرق الأوسط ديموجرافيا إذ أسفرت عن ملايين القتلى وخراب اقتصادي واجتماعي كبير.

شهد العصر المملوكي انتشارا للأوبئة بشكل متكرر بدءا من أربعينيات القرن الرابع عشر في عام ٧٤٨ هـ/١٣٣٨ م وحتى نهاية هذا العصر في ٩٢٣ هـ/١٥١٧ م،[٢] الأمر الذي أثار انتباه المؤرخين بالطبع، فحاولوا تفسيرها عند الحديث عنها؛ وكما تعددت خلفياتهم الثقافية والعلمية والفكرية، اختلفت رؤاهم لها، فبالرغم من وجود قدر ثابت من التعليم الديني لديهم، يبدأ بحفظ القرآن ودراسة الحديث والفقه، كانت مشاربهم الثقافية وخلفياتهم الاجتماعية مختلفة. بعضهم كان مهتما بالتاريخ في المقام الأول مع الانخراط في أعمال مختلفة في الدولة كالمقريزي[٣] (ت ٨٤٥ هـ/١٤٤٢ م)، الذي تولى حسبة القاهرة قبل أن يتفرغ للكتابة التاريخية، والصيرفي (ت ٩٠٠ هـ/١٤٩٥ م)، الذي تولى صيرفة السلطان، وابن تغري بردي (ت ٨٧٤ هـ/١٤٧٠ م)، الذي كان من الجيل الثاني من المماليك (أبناء الناس). بعضهم الآخر كانوا رجال دين من الفقهاء والمحدثين والمفسرين كابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ/١٤٤٩ م) والسيوطي (ت ٩١١ هـ/١٥٠٥ م). وقد تنوعت هذه التفسيرات لظهور الأوبئة وتفشيها ما بين الديني المحض أو الأسطوري، والطبي العلمي، وأغلبها كان خليطا من كل هذا.

١. Dols 1977, p. 35; Ayalon 2015, p. 28.

٢. المقريزي، السلوك، ٢، ق٣، ص٧٧٢-٧٨٠؛ بيرن ٢٠١٤، ص١٨-٢٠. انظر كذلك:
Dols 1977, p. 35, 38; Ayalon 2015, p. 28-29.

٣. انظر ترجمة المقريزي في الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ٤، ص٢٤٢-٢٤٤.

© IFAO 2026 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net

يقارن هذا البحث بين تفسيرات المؤلفين، من مؤرخين وفقهاء وغيرهم، لظهور الأوبئة، مبينا أسباب اعتناقهم لرؤية ما، مفترضا تأثرهم في ذلك بخلفيتهم العلمية أو الفكرية أو الثقافية. ويهتم بالسياقات التي أوردوها في العصر المملوكي لتفسير حدوثها، حيث شغل أذهانهم التساؤل حول سببها وموت الناس والخوف والهلع الذي سيطر على المجتمع، كما شغل أذهان كافة الناس، فذكروا آراءهم الخاصة كما رووا آراء طوائف المجتمع المختلفة في هذا الشأن.

١. التفسيرات الطبيعية للأوبئة

١.١. نظرية الأخلاط أو الأمزجة الأربعة

اتبع المؤرخ تقي الدين المقريزي في تفسيره للأوبئة النظرية السائدة في العصور الوسطى، وهي نظرية الأخلاط أو الأمزجة الأربعة، التي عرفت لدى الأطباء اليونانيين – وخاصة أبقراط وجالينوس – وانتقلت إلى العالم الإسلامي على يد ابن سينا والرازي وغيرهما من الأطباء[٤]. وتقوم هذه النظرية على أن كل شيء في العالم يتكون من واحد من العناصر الأربعة هي الهواء والماء والنار والتراب، وتقابلها في الإنسان أخلاط أربعة هي الدم والبلغم والصفراء والسوداء، وتنتج عن هذه الأخلاط الأربعة الأمزجة الأربعة، وهي المزاج الدموي والبلغمي والصفراوي والسوداوي. ويختلف المزاج، وفق هذه النظرية، بحسب الإقليم، كما أن لكل فرد من الناس مزاجا خاصا يتحكم في حالته العضوية والنفسية.

ويرى جالينوس أن المزاج يتأثر بالمناخ حسب الفصول، وأن من يريد البحث في أسباب الأمراض عليه أن ينظر بعين الاعتبار إلى فصول السنة والآثار التي يحدثها كل منها، ثم بعد ذلك إلى الرياح الساخنة والباردة والرطبة واليابسة، فإذا زاد في الهواء المحيط بالأجساد أي منها، فإنه يكدر ويفسد اعتدال مزاج الأبدان، ومنها الشائعة في كافة الأمصار والبلدان ومنها الخاصة بكل موضع من العالم على حدة، وعلى المرء، حسب قوله، أن يتفكر بمزيد من الانتباه في المياه التي يستخدمها سكان المدينة، وهل هي مياه مستنقعات أم مياه تجري من مواضع مرتفعة وصخرية، وفي الأرض إن كانت جرداء أو مكسوة بالأشجار ومروية جيدا، وهل تقع في موضع منخفض محصور أو في مرتفع بارد، وفي الأسلوب الذي يعيش به السكان، والأنشطة التي يمارسونها، وهل هم مغرمون بالشهوات، وهل يميلون إلى الكسل، أم أنهم مغرمون بالتريض والعمل الشاق[٥].

٤. Dols 1977, p. 87.

٥. جالينوس، شرح جالينوس من كتاب أبقراط، ص٧٠-٧٦، ٧٩-٨٠؛ ابن سينا، القانون في الطب، ١، ص١٧-٢١، ٢٨-٣٥، ٢٠٠-٢٠١؛ عطية ١٩٩٩، ص١٢٦-١٢٧؛ واتس ٢٠١٠، ص٨٥؛ بيرن ٢٠١٤، ص٣٠-٣٣، ٣٩٩، ٤٠٢؛ ساراتشي ٢٠١٥، ص١٥-١٦. انظر كذلك:

Sarton 1943, p. 205-206, Dols 1977, p. 78.

© IFAO 2026 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net

ويطلق المقريزي على الوباء اسم المرض الوافد، ويسميه أيضا الموتان لأنه يكثر معه الموت، ويعرفه بأنه ما يعم خلقا كثيرا في بلد واحد وزمان واحد[٦]، وذلك نقلا عن كل من أبقراط وجالينوس.[٧] ويرى، نقلا عن الأطباء، أن السبب في حدوثه سيلان الأخلاط في الربيع وجمودها في فصل الشتاء، ولذلك يحدث دائما في الربيع حسب قوله، وإن كان رصد مجيء الطاعون عام ٨٣٣ هـ/١٤٢٩ م في الشتاء على خلاف ما قرره الأطباء من حدوث الأمراض في الربيع[٨]، وهو ما عده الصيرفي من النوادر لنفس السبب، وأرجع ذلك إلى مشيئة الله تعالى واختياره[٩].

ويرى المقريزي أن «للمرض الوافد» أسبابا كثيرة وأن السبب الأول فيها زيادة فيضان النيل زيادة كبيرة عن الحد، واستمرار هذه الزيادة مدة طويلة، لأن الفيضان في مصر يحدث في الصيف، وتغمر المياه الأرض في فصل الخريف، بخلاف الأنهار الأخرى التي تفيض في الشتاء[١٠]. يقول: «أرض مصر كثيرة الاختلاف، كثيرة الرطوبة الفضلية التي يسرع إليها العفن، والعلة القصوى في جميع ذلك هو أن أخص الأوقات بالجفاف في الأرض كلها تكثر فيه بمصر الرطوبة، لأنها تترطب في الصيف والخريف بمد النيل وفيضه، وهذا بخلاف ما عليه البلدان الأُخَر[١١].»

ويرى المقريزي أنه إذا كان المصريون لا يمرضون دوما، فلتعوُّدهم على حال أرض مصر ولأن أجسادهم تشبه الأرض التي نشأوا فيها[١٢]. ولذلك لا يتعرضون للأوبئة إلا إذا زاد الفيضان عن المعتاد وزادت مدته عن الحد الطبيعي: «وإذا كانت الزيادة على ثمانية عشر ذراعا كانت العاقبة في انصرافه حدوث وباء[١٣]». لكن لم يربط المقريزي بين زيادة الفيضان (حالات الاستبحار) وحدوث الأوبئة في حولياته إلا في حالة واحدة في عام ٨٢٥ هـ/١٤٢٢ م، عندما ذكر أن فيضان النيل قد بلغ في أقصى حد له في هذا العام عشرين ذراعا ونصف ثم أشار إلى انتشار الأمراض في نفس العام في القاهرة والوجه البحري عند انحطاط ماء النيل في فصل الخريف[١٤].

٦. المقريزي، الخطط، ١، ص١٢٢.
٧. جالينوس، شرح جالينوس من كتاب أبقراط، ص٨٠، ٨٢، ٨٤.
٨. جالينوس، شرح جالينوس من كتاب أبقراط، ص١٨٢؛ المقريزي، السلوك، ٤، ق٢، ص٨٢١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٤، ص٣٣٧-٣٣٨.
٩. الصيرفي ١٩٧١-١٩٧٣، ٣، ص١٨٢-١٨٣.
١٠. المقريزي، الخطط، ١، ص١٢١.
١١. المقريزي، الخطط، ١، ص١١٥.
١٢. المقريزي، الخطط، ١، ص١١٥-١١٦، ١٢٢.
١٣. المقريزي، الخطط ١، ص١٥٨.
١٤. المقريزي، السلوك، ٤، ق٢، ص٦٢٠، ٦٢٥؛ الجعيدي ٢٠٠٢، ص٤٥، ٤٧.

© IFAO 2026 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net

واتفق معه في الرأي المؤرخ ابن تغري بردي الذي يقول في كتابه النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: «وإذا زاد [أي النيل] على السبع عشرة وبلغ الثمان عشرة ذراعا وأغلقها استبحر من أرض مصر الربع [...] وإذا كانت الزيادة ثمان عشرة ذراعا كانت العاقبة في انصرافه حدوث وباء في مصر[١٥].»

٢.١. تغير كيفية الهواء والماء والغذاء الحالة النفسية

كما يرى المقريزي أن الأوبئة لها أسباب كثيرة تجتمع في أربعة أمور أساسية، وهي تغير كيفية الهواء[١٦] وتغير كيفية الماء وتغير كيفية الأغذية وتغير الحالة النفسية للناس[١٧]، فيقول:

> [...] فالأمراض الوافدة بمصر تحدث إما عن فساد لم تجر به العادة يعرض للهواء، سواء كانت مادة فساده من أرض مصر، أو من البلاد التي تجاورها كالسودان والحجاز والشام وبرقة، أو يعرض للنيل بأن تفرط زيادته فتكثر زيادة الرطوبة والعفن، أو تقل زيادته جدا فيجف الهواء عن مقدار العادة ويضطر الناس إلى شرب مياه رديئة، أو يخالطه عفونة تحدث عن حرب تكون في أرض مصر أو ببلاد السودان أو غيرها يموت فيها خلق كثير ويرتفع بخار جيفهم في الهواء فيعفنه ويتصل عفنه إليهم، أو يسيل الماء ويحمل معه العفن، أو يغلو السعر، أو يلحق الغلات آفة، أو يدخل على الكباش ونحوها مضرة، أو يلحق الناس خوف عام أو قنوط، وكل واحد من هذه الأسباب يحدث في أرض مصر مرضا وافدا تكون قوته بمقدار قوة السبب المحدث له، وإن كان أكثر من سبب واحد كان ذلك المرض أشد وأقوى وأسرع في القتل[١٨].

والهواء، من وجهة نظر المقريزي، تتغير كيفيته على ضربين: أحدهما تغيره الذي جرت به العادة، وهذا لا يحدث مرضا ولا وباءا، والثاني تغيره الخارج عمّا جرت به العادة، ويرى أن هذا هو الذي يسبب حدوث الأوبئة. وخروج تغير الهواء عن عادته، يكون «إما بأن يسخن أكثر أو يبرد أو يرطب أو يجف، أو يخالطه حالة عفنية، والحالة العفنية

١٥. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١، ص٥٤.
١٦. كانت النظرية السائدة في تفسير حدوث الوباء في العصور الوسطى تقوم على أن سببه الرئيسي هو فساد الهواء أو الهواء المحلل والمعفن على حد قول ابن سينا.
راجع: جالينوس، شرح جالينوس من كتاب أبقراط، ص٨٠، ٨٢، ٨٤، ١٨٨؛ ابن سينا، القانون في الطب، ١، ص٢٠١.
١٧. المقريزي، الخطط، ١، ص١٢٢.
١٨. المقريزي، الخطط، ١، ص١٢٤.

© IFAO 2026 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net

إما أن تكون قريبة أو بعيدة[١٩]»، ثم ينقل آراء أطباء اليونان القديمة في أن فساد الهواء من الممكن أن ينتقل من أماكن بعيدة فيقول: «فإن أبقراط وجالينوس يقولان: إنه ليس يمنع مانع من أن يحدث ببلد اليونانيين مرض وافد عن عفونة اجتمعت في بلاد الحبشة، وتراقت إلى الجو وانحدرت على اليونانيين فأحدثت فيهم المرض الوافد[٢٠].»

ويتحدث المقريزي عن ارتباط الأوبئة بالماء فيقول:

> والماء أيضا قد يحدث المرض الوافد، إما بأن يفرط مقداره في الزيادة أو النقصان، أو يخالطه حال عفنة، ويضطر الناس إلى شربه، ويعفن به أيضا الهواء المحيط بأبدانهم، وذلك إذا شرب منه مباشرة وهو كذلك، أو مر أثناء جريانه على موضع اجتمع فيه من جيف الموتى شيء كثير، أو بمياه نقائع عفنة فيختلط بها ويحدرها معه[٢١] [...].

كذلك يتحدث المقريزي عن أن سبب الأوبئة قد يكون الأغذية إذا هزلت الحيوانات وارتفع ثمنها واضطر الناس إلى أكلها، أو بسبب فساد مرعاها أو الماء الذي تشربه[٢٢]، ثم يذكر أثر العامل النفسي في انتشارها، فيقول:

> والأحداث النفسانية تحدث المرض الوافد متى حدث في الناس خوف عام من بعض الملوك، فيطول صبرهم وتفكرهم في الخلاص منه وفي وقوع الوباء، فيسوء هضم أجوافهم وتتغير حرارتهم الغريزية، وربما اضطروا إلى حركة عنيفة في هذه الحال، أو يتوقعون قحط بعض السنين، فيكثرون الحركة والاجتهاد في ادخار الأشياء، ويشتد غمهم بما سيحدث[٢٣].

١٩. المقريزي، الخطط، ١، ص١٢٢-١٢٣.
٢٠. المقريزي، الخطط، ١، ص١٢٣.
٢١. المقريزي، الخطط، ١، ص١٢٣
٢٢. المقريزي، الخطط، ١، ص١٢٣.
٢٣. المقريزي، الخطط، ١، ص١٢٣.

© IFAO 2026 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net

٠٣٠١. العدوى

كذلك، عرف المقريزي العدوى[٢٤]، فبالرغم من عدم معرفة الأطباء حتى العصر الحديث للبكتيريا والفيروسات المسببة للأمراض ولا لطرق العدوى بها، فقد عرفوا العدوى بالمشاهدة والنظر في أحوال المرضى وأرجعوها إلى مخالطة أخلاط فاسدة للهواء. يقول:

> وقد يتغير أيضا مزاج الهواء على العادة، بأن يصل وفد كثير قد أنهك أبدانَهم طول السفر وساءت أخلاطهم، فيخالط الهواء منها شيء كثير، ويقع الإعداء في الناس، ويظهر المرض الوافد [...]؛ وظاهر أنه إذا كثر في وقت واحد المرضى بمدينة واحدة، ارتفع من أبدانهم بخار كثيف فيتغير مزاج الهواء، فإذا صادف بدنا مستعدا أمرضه، وإن كان صاحبه لم يتعرض لما يتعرض إليه الناس[٢٥].

٠٤٠١. ارتباط الأوبئة بالمجاعات

والمجاعات غالبا ما ترتبط بظهور وباء الطاعون، ربما نتيجةً لانخفاض المناعة والمقاومة البشرية للأمراض، ونقل احتياطيات الغذاء مما يجعل الفئران المصابة تتصل بالبشر[٢٦]. وقد أدرك المؤرخون كالمقريزي وابن تغري بردي هذه الصلة الوثيقة فربطوا بين نقص فيضان النيل وغلاء الأسعار وحدوث المجاعات، من جهة، وحدوث الأوبئة، من جهة أخرى، فيذكر المقريزي أنه حدث في عام ٤٤٤ هـ/١٠٥٢ م نقص في فيضان النيل فغلت الأسعار وانتشرت الأوبئة في مصر،[٢٧] وكذلك في عام ٧٧٦ هـ/١٣٧٤ م في صعيد مصر.[٢٨] كذلك، يروي أن السبب في الوباء الذي كان في عهد الخليفة الظاهر الفاطمي عام ٤١٥ هـ/١٠٢٤ م، كان نقصان النيل فاشتد الغلاء وعم الخوف والاضطراب وحدثت المجاعة ومن ثم انتشر الوباء في مصر[٢٩].

٢٤. تختلف العدوى هنا عن العدوى بمفهومها الحديث بعد اكتشاف الميكروبات، فهي وجهة نظر توفيقية بين الرأي الشائع وقتها لأبقراط وجالينوس من أن السبب في الوباء هو مزاج الهواء المحيط بالناس وبين انتشار الوباء بين المخالطين للمرضى. جالينوس، شرح جالينوس من كتاب أبقراط، ص٨٠، ٨٢، ٨٤، ١٨٨. انظر كذلك:

Dols 1977, p. 92-93.

٢٥. المقريزي، الخطط، ١، ص١٢٣.
٢٦. Dols 1977, p. 22.
٢٧. المقريزي، الخطط، ١، ص١٩٦.
٢٨. المقريزي، الخطط، ١، ص٥١٦.
٢٩. المقريزي، الخطط، ٢، ص١٩٠-١٩١.

© IFAO 2026 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net

ويذكر كل من المقريزي وابن تغري بردي أنه في ٦٩٤ هـ/١٢٩٤ م، في العام الأول من حكم العادل كتبغا المنصوري (٦٩٤-٦٩٦ هـ/١٢٩٤-١٢٩٦ م)، كان الغلاء عظيما بسائر البلاد، ولا سيما بمصر والشام، وكان بمصر مع الغلاء وباء عظيم وقاسى الناس الشدائد في هذه السنة، واستسقى الناس بمصر من عظم الغلاء والفناء[٣٠].

٥.١. ارتباط الأوبئة بالفتن والحروب

كذلك قرن المؤرخون في مصر المملوكية بين حدوث الفتن والحروب وكثرة القتلى، من جهة، والأوبئة، من جهة أخرى، فقد ذكر المقريزي أن السبب في «الشدة المستنصرية»، وهي المجاعة التي حدثت في عام ٤٥٧ هـ/١٠٦٥ م واستمرت إلى عام ٤٦٤ هـ/١٠٧١ م، حدوثُ غلاء شديد أعقبه وباء، وأن السبب في حدوث الغلاء وقوعُ فتن وحروب بين الأتراك والعبيد السود ومع الخارجين على الدولة، كابن حمدان الذي خرج على الخليفة الفاطمي المستنصر (٤٢٧-٤٨٧ هـ/١٠٣٦-١٠٩٤ م) في البحيرة، وخطب للخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧ هـ/١٠٣١-١٠٧٥ م)، فحاربه المستنصر بالله، فحدث الغلاء في مصر نتيجة لقطع الطرق ونهب الأراضي والمخازن، واستمر الأمر على ذلك سبع سنين؛ وبرغم حدوث الفيضان، لم يتمكن الناس من الزراعة بسبب انعدام الأمن، فعمت المجاعة والوباء أرض مصر فأكل الناس الميتة والكلاب والقطط[٣١]. كذلك، حدث الوباء في عهد الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله (٥٢٤-٥٤٤ هـ/١١٣٠-١١٤٩ م) في عام ٥٣٦ هـ/١١٤٢ م بسبب غلاء الأسعار الناتج عن انعدام الأمن في البلاد[٣٢]، وكذلك في عام ٨٣٣ هـ/١٤٢٩ م، حيث حدث وباء عظيم قدر من مات فيه بحوالي مائة ألف[٣٣].

٦.١. التفسيرات الفلكية

وإلى جانب الأسباب الطبية الشائعة في ذلك العصر، نقلت لنا أعمال المؤرخين في القرن الخامس عشر المعارف السائدة آنذاك عن أسباب أخرى للأوبئة. وينقل المقريزي، الذي يميل إلى التفسيرات الطبيعية، عن مؤلف مجهول – رأى مصنفا له في التنجيم وعليه شرح – أن السبب في حدوث الغلاء والوباء في مصر «عندما حل زحل في برج الجوزاء وكان معه الجوزهر فكانت أشد وأقوى[٣٤]»؛ وينقل عن شارح الكتاب أن هذا قد وقع فعلا في

٣٠. المقريزي، الخطط، ٢، ص١٤٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٨، ص٧١.
٣١. المقريزي، الخطط، ٣، ص١٣٦-١٤٣.
٣٢. المقريزي، الخطط، ٢، ص٢٠١.
٣٣. المقريزي، السلوك، ٤، ق٢، ص٨٣٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٤، ص٣٤٧.
٣٤. المقريزي، الخطط، ٢، ص٢٤١.

© IFAO 2026 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net

عهد الظاهر بيبرس سنة ٦٦٤ هـ/١٢٦٦ م وفي آخر عام ٦٩٤ هـ/١٢٩٥ م وأول سنة ٦٩٥ هـ/١٢٩٥ م في عهد العادل كتبغا[٣٥].

ويرى المقريزي صحة هذا الأمر فيقول إن هذا القران يحدث كل ثلاثين عاما ويستمر لمدة ثلاثين شهرا، وأنه اختبر ذلك بنفسه وراجعه، فرأى أنه كلما حدث ذلك حدث فعلا الغلاء والوباء في مصر؛ كذلك، يؤكد على موافقته رأيَ صاحب هذا الكتاب بأن القران العاشر كانت بدايته سنة ٧٨٦ هـ/١٣٨٤ م ونهايته سنة ٨٠٦ هـ/١٤٠٤ م، أي أنه استمر لمدة عشرين عاما تدهور فيها حال القاهرة تدهورا شديدا كما توقع المنجم؛ كما يوافقه في توقعه خراب القاهرة ونهايتها في عام ٨١٨ هـ/١٤١٥ م عندما يقترن زحل والمريخ في برج السرطان، ويستدل على ذلك بسوء حال القاهرة العمرانية والاقتصادية.[٣٦]

ويذكر كل من المقريزي وابن تغري بردي أن الوباء في يوم منتصف جمادى الآخرة من عام ٨٣٣ هـ/١٤٢٩ م أخذ يتناقص استجابة من الله لدعاء الصالحين، ولكنه ما لبث أن عاد مرة أخرى في رجب لسبب فلكي وهو دخول الشمس في برج الحمل[٣٧].

ويتفق ابن تغري بردي مع المقريزي في الاعتقاد بصحة التنجيم ووقوع الوباء بسبب حركة النجوم في أبراج السماء فيقول إنه في عام ٨٥٦ هـ/١٤٥٢ م، فشا الموت في القاهرة بسبب حدوث وباء لم يذكر ما هو، ولكنه يقول إنه لم يكن الطاعون، واشتد بسبب انتقال الشمس إلى برج الحوت، بالرغم من رخص الأسعار والرخاء في هذا العام.[٣٨] كذلك اعتقد ابن تغري بردي أن الطاعون الذي حدث بواسط وانتشر منها إلى سائر العراق في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي (ت ٩٥ هـ/٧١٣ م) قد حدث بسبب شؤم هذا الأخير[٣٩].

٢. الأوبئة كعقاب إلهي

وبالرغم من أن المؤرخين في ذلك العصر كانوا يميلون إلى تفسير الأوبئة بالأسباب الطبيعية، كانوا ينقلون في مؤلفاتهم التفسيرات الدينية التي كان يميل إليها مجتمع العصر المملوكي. ويروي كل من المقريزي وابن تغري بردي والصيرفي الاعتقاد بأن الطاعون قد يصيب البعض بسبب الدعاء عليهم به، فيقولون إن السلطان الأشرف برسباي (٨٢٥-٨٤١ هـ/١٤٢٢-١٤٣٨ م) كان يؤمن بأن دعاءه على المماليك السلطانية بسبب فسادهم وتصرفاتهم المسيئة إليه

٣٥. المقريزي، الخطط، ٢، ص٢٤٢.
٣٦. المقريزي، الخطط، ٢، ص٢٤٣.
٣٧. المقريزي، السلوك، ٤، ق٢، ص٨٢٨-٨٢٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٤، ص٣٤٣.
٣٨. ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ٢، ص٥٥٧.
٣٩. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١، ص٢٣٠.

© IFAO 2026 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net

وإلى الناس تسببت في موتهم بالطاعون عام ٨٣٣ هـ/١٤٢٩ م، وأنه اشترى بعد ذلك المماليك، فأفسدوا مثلما فعل من كان قبلهم فدعا عليهم فأصابهم الطاعون أيضا عام ٨٤١ هـ/١٤٣٧ م، ثم يقول إنه قد عفا عنهم حتى لا يصيب الوباء البقية.[٤٠]

وقد ظلت وجهة النظر الغالبة لدى العلماء والفقهاء وعامة الشعب وخاصتهم أن وقوع الوباء بسبب إرادة الله وكانت التفسيرات المختلفة تبحث في كيفية إنفاذه لإرادته[٤١]. وبسبب انتشار الخوف وعدم الأمان وبسبب عدم جدوى اللجوء إلى الأطباء، تتصاعد الرغبة في الاحتماء بالدين، ويزيد التردد على دور العبادة وممارسة الشعائر الدينية. وللحاجة إلى لوم المتسبب في وقوع الوباء، ظهرت تفسيرات غيبية كان أهمها أن الأوبئة عقاب من الله بسبب فساد العباد وظلم الحكام وغضب من الله تعالى بسبب انتشار الفواحش وشرب الخمر وأكل الربا وخروج النساء متزينات ومتبرجات من بيوتهن. وفي الواقع لم يكن التفسير الديني للأوبئة قاصرا على العالم الإسلامي بل كان ظاهرة عامة في العصور الوسطى في كل العالم المعروف آنذاك[٤٢]، فجميع مؤرخي الموت الأسود وأوبئة الطاعون اللاحقة يفسرون هذه الكوارث على أنها عقوبات إلهية للإنسان على خطاياه. ولم تكن فكرة الغضب الإلهي بأي حال من الأحوال اختراعا من اختراعات العصور الوسطى إذ تعود إلى أقدم العصور التي عرفتها البشرية[٤٣].

وقد قال ابن إياس إن «الطاعون كان في مدة انقطاعه عن مصر كثر بها الزنا واللواط وشرب الخمر وأكل الربا وظلم المماليك في حق الناس[٤٤]». وفي ٢٣ من رمضان عام ٨٤١ هـ/١٤٣٧ م، اجتمع قضاة المذاهب الأربعة والعلماء وطلاب العلم لقراءة صحيح البخاري في القلعة بين يدي السلطان الأشرف برسباي، كما هي العادة في ذلك العصر، وكان السلطان قلقا من أمر انتشار الوباء في البلاد، فسأل القضاة والفقهاء عن الذنوب التي إذا ارتكبها الناس عاقبهم الله بالطاعون، فقال له بعضهم: إن الزنا إذا فشا في الناس ظهر فيهم الطاعون، وأن النساء يتزينّ ويمشين في الطرقات ليلا ونهارا؛ وأشار آخر إلى أن المصلحة تقضي بمنع النساء من المشي في الأسواق، فنازعه آخر فقال: لا يمنع من ذلك إلا المتبرجات، وأما العجائز ومن ليس لها من يقوم بأمرها، فلا تمنع من تعاطي حاجاتها؛ وعارض بعضهم البعض؛ فمال السلطان إلى منعهن من الخروج مطلقا، واتفق معه العلماء على ذلك، وتوعد من خرج منهن بالقتل، ظنا منه أنه بمنعهن يرتفع الوباء، وأصدر أمرا بذلك وتولى تنفيذه والي القاهرة والمحتسب ورجاله، وأقال السلطان المحتسب القاضي صلاح الدين محمد بن الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله وولى دولات نجا الذي وصفه

٤٠. المقريزي، السلوك، ٤، ق٢، ص١٠٤٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٤، ص٣٥٦؛ الصيرفي ١٩٧١-١٩٧٣، ٣، ص٤١٦.

٤١. Dols 1977, p. 84.

٤٢. عنان ١٩٦٩، ص١٥٣؛ الجعيدي ٢٠٠٢، ص٣١٨-٣٢٠؛ مصطفى عبد العظيم ٢٠٢٠، ص١٧-٢٠؛ حمودة ١٩٨٩، ص٤٨.

٤٣. Hanska 2002, p. 116.

٤٤. ابن إياس، بدائع الزهور، ٢، ص٢٧٣.

© IFAO 2026 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net

بأنه «ليس بمسلم ولا يخاف الله[٤٥]»، وذلك حتى يمنع النساء من الخروج بقسوة وبعقوبات شديدة، ظانا أن منعهن سيؤدي إلى زوال وباء الطاعون، ثم خفف السلطان هذا المنع لما لحق بالناس من مشقة، فسمح للجواري بالخروج بشرط ألا يتنقبن، وأن تخرج العجائز لقضاء أشغالهن، كما سمح للنساء بالخروج إلى الحمام بشرط ألا يبتن فيه[٤٦].

ويتضح من تعليقات المقريزي والصيرفي عدم رضاهما عن هذا القرار فيقول المقريزي: «[...] فازداد الناس وقوف حال، وكساد معايش، وتعطل الأسواق، وقلة مكاسب[٤٧]»؛ واتفق معه الصيرفي في ذلك بالإضافة إلى أنه عدد بعض الحوادث المفجعة التي حدثت للنساء نتيجة منعهن من الخروج والعقوبات الشديدة التي وقعت عليهن، ومنها أن امرأة منعوها من اتباع جنازة ابنها الوحيد الذي مات بالطاعون فألقت بنفسها من سطح بيتها فماتت، وامرأة خرجت لضرورة فوجدت المحتسب دولات نجا فأمر بحملها إلى داره لعقابها فذهب عقلها من الخوف ومرضت أياما وماتت[٤٨].

وقد انتقد ابن تغري بردي هو الآخر هذه القرارات وما ترتب عليها من الأضرار التي لحقت بالناس، فقال:

> كل ذلك لعدم أهلية الحكام واستحسان الولاة على الخواطئ، وإلا فالحرة معروفة ولو كانت في الخمارة، والفاجرة معروفة ولو كانت في البيت الحرام، ولا يخفى ذلك على الذوق السليم،غير أن هذا كله وأمثاله لولاية المناصب غير أهلها، وأما الحاكم النحرير الحاذق الفطن إذا قام بأمر نهض به وتتبع الماء من مجاريه، وأخذ ما هو بصدده حتى أزاله في أسرع وقت وأهون حال، ولا يحتاج ذلك إلى بعض ما الناسُ فيه، وهو ذهاب الصالح بالطالح والبريء مع المجرم، وتحكم مثل هذا الجاهل بالمسلمين[٤٩].

وقد رصد المؤرخون الطرق التي حاول بها الناس إطفاء غضب الله واسترضاءه، فيقول المقريزي إنه عندما اشتد الوباء في عام ٧٤٨ هـ/١٣٣٨ م في دمشق، جاء رجل من بلاد الروم إلى قاضي دمشق، الشيخ تقي الدين السبكي، فزعم أنه رأى النبي محمد ﷺ في رؤيا فشكا إليه الوباءَ وموت الناس فأمره بأن يقول للناس أن يقرأوا سورة نوح ثلاثة آلاف وثلاثمائة وستين مرة وأن يدعوا الله ليذهب الوباء، فأخبر الناس بذلك فاجتمعوا في المساجد وفعلوا مثلما قال وتضرعوا إلى الله وتابوا من ذنوبهم وذبحوا وأطعموا الفقراء لمدة سبعة أيام، ثم يروي أنه نتيجة لذلك، كان الوباء يتناقص كل يوم من الأيام السبعة حتى زال، فنودي في الناس ليجتمعوا في الجامع الأموي فاجتمعوا

٤٥. الصيرفي ١٩٧١-١٩٧٣، ٣، ص٤٠٥.
٤٦. المقريزي، السلوك، ٤، ق٢، ص١٠٣١-١٠٣٣؛ الصيرفي ١٩٧١-١٩٧٣، ٣، ص٤٠٤-٤٠٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٥، ص٩٣.
٤٧. المقريزي، السلوك، ٤، ق٢، ص١٠٣٣.
٤٨. الصيرفي ١٩٧١-١٩٧٣، ٣، ص٤٠٩.
٤٩. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٥، ص٩٥.

© IFAO 2026 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net

فيه وأخذوا يقرأون صحيح البخاري ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، ثم ذهبوا ومعهم أطفالهم إلى المصلّى وأخذوا يصلون ويدعون الله لمدة ثلاثة أيام، فتراجع الوباء حتى انتهى؛ وروى كذلك أن نائب حلب أرسل إلى السلطان أن بعض الصالحين في مدينته رأى النبي وأنه أمره بالتوبة والدعاء بدعاء معين وأنه كتب هذا الدعاء وأرسله إلى حماة وطرابلس ودمشق.[٥٠] ثم يعود المقريزي ويؤكد على أن ذنوب الناس هي السبب في حدوث الطاعون وأن التوبة والصلاة والتضرع إلى الله تذهبه فيقول:

> وفي هذا الشهر، أي رجب من عام ٨٤١ هـ، وقع الوباء في بلاد الصعيد، وكثر بدمشق، وشنع بحلب وأعمالها، فأظهر أهلها التوبة، وأغلقوا حانات الخمارين، ومنعوا البغايا الواقفات للبغاء، والشباب المرصدين لعمل الفاحشة، بضرائب تحمل لنائب حلب وغيره من أرباب الدولة، فتناقص الموت وخف الوباء، حتى كاد يرتفع، ففرح أهل حلب بذلك، وجعلوا شكر هذه النعمة أن فتحوا الخمارات وأوقفوا البغايا والأحداث للفساد بالضرائب المقررة عليهم، فأصبحوا وقد مات من الناس ثمانمائة إنسان. واستمر الوباء الشنيع والموت الذريع فيهم، في رجب وشعبان وما بعده[٥١].

لكن عندما يروي أحداث الوباء في مصر، يختلف تعليق المقريزي على اجتماع الناس للصلاة عما سمعه من أحداث الشام واختفاء الوباء بها بعد اللجوء إلى الله، فيقول إنه في نفس العام، فعل المصريون ما فعله أهل الشام، فقد نودي في الناس فاجتمعوا في المساجد في يوم الجمعة السادس من رمضان فدعوا الله وصلوا وقرأوا صحيح البخاري لعدة أيام، ولكن عدد الأموات، مع ذلك، زاد حتى عجز الناس عن حصر أعدادهم[٥٢].

كذلك، يروي المقريزي أنه في عام ٨٣٣ هـ/١٤٢٩ م، ومع اشتداد وباء الطاعون في مصر، نودي في جمادى الأولى في الناس بصيام ثلاثة أيام، وأن يتوبوا إلى الله تعالى من معاصيهم، ويردوا المظالم إلى أصحابها، ويعلق على ذلك بأن الحكام أمروا الناس بذلك واستمروا هم في ظلم الناس وأمروهم بأن يخرجوا إلى الصحراء في اليوم الرابع، فخرجوا في جمع غفير خارج باب النصر، وعلى رأسهم قاضي القضاة، علم الدين صالح البلقيني، وجلس بجانب تربة الظاهر برقوق (٧٨٤-٧٩١ هـ/١٣٨٢-١٣٩١ م و٧٩٢-٨٠١ هـ/١٣٩٢-١٣٩٩ م) وتضرع إلى الله ودعا ووعظ الناس فبكوا وضجوا ضجيجا شديدا، وانصرفوا قبل الظهر. يذكر المقريزي أن «الموت كثر في الناس بعد هذا اليوم[٥٣]». ويرجع

٥٠. المقريزي، السلوك، ٢، ق٣، ص٧٧٩-٧٨٠.
٥١. المقريزي، السلوك، ٤، ق٢، ص١٠٢٧-١٠٢٨.
٥٢. المقريزي، السلوك، ٢، ق٣، ص٧٨٠-٧٨١.
٥٣. المقريزي، السلوك، ٤، ق٢، ص٨٢٢-٨٢٣.

© IFAO 2026 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net

المقريزي والصيرفي ذلك إلى ظلم الحكام والولاة، فقد «أمروا الناس برد المظالم وهم على ما هم عليه من الظلم[٥٤]». أما الصيرفي فأرجع انتشار الوباء إلى وجود علم الدين صالح البلقيني في منصب قاضي قضاة الشافعية، وأنه حصل على هذا المنصب بدفع الرشوة وهو غير مستحق له؛ ويبدو أن هذا الرأي كان منتشرا بين الناس بدليل أن السلطان الأشرف برسباي عزله سنة ٨٤١ هـ/١٤٣٨ م وولى الحافظ ابن حجر مكانه «لخوفه من الطاعون، وأقسم ألا يولي أحدا من القضاة بالرشوة بعد ذلك وأشهد على نفسه[٥٥]».

وحسب ما أورده المقريزي وابن تغري بردي، في يوم الجمعة الخامس عشر من جمادى الآخر من عام ٨٣٣ هـ/١٤٢٩ م، جمع الشريف شهاب الدين أحمد كاتب السر بالديار المصرية، بأمر السلطان الأشرف برسباي أربعين شريفا اسم كل منهم محمد، وفرق فيهم من ماله خمسة آلاف درهم، وأجلسهم بالجامع الأزهر فقرأوا ماتيسر من القرآن الكريم بعد صلاة الجمعة، ثم قاموا هم والناس فوقفوا ودعوا الله تعالى حتى دخل وقت صلاة العصر، فصعد الأربعون شريفا إلى سطح الجامع وأذنوا جميعا، ثم نزلوا وصلوا مع الناس صلاة العصر وانصرفوا وانصرف الناس، وكان ذلك بمشورة بعض القادمين من المشرق الإسلامي، وأنهم عملوا ذلك في بلادهم فارتفع الوباء عقب ذلك، ويذكر كل من المقريزي وابن تغري بردي أن الوباء أخذ يتناقص في الأيام التالية لهذا الأمر، لكنه ما لبث أن عاد مرة أخرى في رجب – وإن كانا أرجعا ذلك إلى سبب فلكي وهو دخول الشمس في برج الحمل – كما سبق القول[٥٦]، بينما أرجع الصيرفي زواله إلى ما يعتقده من بركة النبي محمد ﷺ وبركة آل البيت[٥٧].

ويذكر المقريزي والصيرفي أنه في عام ٨٤١ هـ/١٤٣٨ م، أراد السلطان الأشرف برسباي أن يتقرب إلى الله فأخرج جميع السجناء من المجرمين ومن عليه دين وأغلق السجون كلها، ولكن كان عاقبة ذلك أن انتشر المجرمون وزادت الجرائم وامتنع بعض الناس عن سداد ديونهم وضاعت حقوق الناس[٥٨].

وقد دفعت محاولات التقرب إلى الله لرفع الوباء أحيانا إلى اضطهاد المسيحيين ظنا أن ذلك يرضي الله، ففي عام ٨٤١ هـ/١٤٣٧ م، حين اشتد الوباء، هوجمت بيوت بعض المسيحيين وأريقت دنان الخمر التي كانت بها، كما هدم دير المغطس، بالقرب من بحيرة البرلس عند الملاحات، وكان يزوره المسيحيون المصريون في عيد الظهور

٥٤. المقريزي، السلوك، ٤، ق٢، ٨٢٢؛ الصيرفي ١٩٧١-١٩٧٣، ٣، ص١٨٤.
٥٥. الصيرفي ١٩٧١-١٩٧٣، ٣، ص٤٠٨.
٥٦. المقريزي، السلوك، ٤، ق٢، ص٨٢٨-٨٢٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٤، ص٣٤٣.
٥٧. الصيرفي ١٩٧١-١٩٧٣، ٣، ص١٩٠-١٩١.
٥٨. المقريزي، السلوك، ٤، ق٢، ص١٠٣٣؛ الصيرفي ١٩٧١-١٩٧٣، ٣، ص٤٠٥.

© IFAO 2026 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net

ويقدسونه.[٥٩] ويذكر المقريزي أنه «قد نزلت أنواع المكاره بأهل الذمة من اليهود والمسيحيين في هذا العام[٦٠]»، بينما يقول الصيرفي إن «الظلم زاد في هذا العام على أهل الذمة ونزلت بهم المكاره[٦١]».

كذلك، احتفظت لنا المصادر التاريخية ببعض التفسيرات الغيبية الأخرى كزعم الناس أن مقتل شخص لادعائه أنه يعرف صناعة الكيمياء وتضييعه أموال السلطان على تحويل المعادن إلى معادن نفيسة بلا جدوى، قد أدى إلى وقوع الوباء والغلاء والجفاف.[٦٢]

٣. علماء الدين والأوبئة

١.٣ التفسيرات الدينية لانتشار الأوبئة

أما الفقهاء والمحدثون، فإلى جانب التفسير الطبي لحدوث الوباء والقائم على نظرية الأخلاط الأربعة وفساد وتعفن الهواء والمياه والأغذية، تبنوا تفسيرات دينية مأخوذة في الأساس من كتب الأثر والحديث. ولعل أبرز مثال على ذلك ما كتبه ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ/١٤٤٩ م) في بذل الماعون في فضل الطاعون، وقد لخصه السيوطي (ت ٩١١ هـ/١٥٠٥ م) في ما رواه الواعون في الطعن والطاعون. وهما يتفقان في أن الطاعون رِجز وعذاب عُذبت به الأمم السابقة على المسلمين، وقيل هم بنو إسرائيل[٦٣] ويستدل على ذلك، في نظرهما، بأن عبد الرحمن بن عوف أخبر أصحابه وهو في طريق الشام، لما بلغه أن بها الطاعون، عن النبي ﷺ، فقال: «إن هذا الوجع – أو السقم – عذاب عذب به من كان قبلكم»؛ وفي بعض طرقه: «عذاب عذب به بعض بني إسرائيل[٦٤]»، ولكن هذا العذاب صار رحمة وشهادة للمؤمنين، فيذكر حديث البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنه «كان عذابا يبعثه الله تعالى على من يشاء، فجعله رحمة للمؤمنين[٦٥]»، أي أن من يصاب بالطاعون يعد شهيدا فيدخل الجنة بلا سؤال أو حساب.

٥٩. المقريزي، السلوك، ٤، ق٢، ص١٠٣٤؛ الصيرفي ١٩٧١-١٩٧٣، ٣، ص٤٠٧-٤٠٨.
٦٠. المقريزي، السلوك، ج٤، ق٢، ص١٠٣٥.
٦١. الصيرفي ١٩٧١-١٩٧٣، ٣، ص٤٠٧-٤٠٩.
٦٢. ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ص٤٠-٤١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ٢، ص٢٧١.
٦٣. ومن ذلك أن الله ضرب بني إسرائيل بالطاعون عقابا على ما فعله داوود من إحصاء الشعب. سفر صموئيل الثاني، إصحاح ٢٤؛ سفر الأيام الأول، إصحاح ٢١. يروي ابن حجر هذه الواقعة فيجعل العقاب بسبب ظلم وطغيان بني إسرائيل. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص٨٢. ويرى السيوطي كذلك أنه كان عقابا أرسله الله تعالى على بني إسرائيل بسبب الزنا (السيوطي، ما رواه الواعون، ص١٣٩).
٦٤. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص٧٣-٧٧، السيوطي، ما رواه الواعون، ص١٣٧-١٣٨.
٦٥. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص٧٨-٨٠.

© IFAO 2026 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net

ويعتقد ابن حجر العسقلاني والسيوطي أن السبب في حدوث الطاعون وخز أو طعن من الجن[٦٦]، كما أخبر النبي ﷺ بذلك حسب قولهما، ثم يناقشان كون هذا الجن كافرا أم مسلما، فيذكر أن هناك أقوالا في ذلك، الأول أنهم كفار والثاني أنهم مسلمون يفعلون ذلك بأمر الله تعالى للعقاب أو الابتلاء والقول الثالث أنهم من المسلمين والكفار على السواء، وأن الوباء رحمة للمسلمين لأنهم يحصلون على الشهادة وبالتالي يدخلون الجنة بدون حساب أو عقاب، ولذلك، على حد قولهما، دعا الرسول صلى الله أن يكون وفاة أمته بالطعن أي القتل والطاعون، فيصير الطاعون عقابا لمن يستحق العقوبة ورحمة للمؤمنين[٦٧].

٢.٣. رجال الدين بين العلم والطب في تفسير حدوث الأوبئة

يروي ابن حجر في كتابه كلام ابن النفيس الطبيب في الموجز في الطب من أن الوباء ينشأ عن فساد يعرض لجوهر الهواء لأسباب سمائية ككثرة الشهب والرجوم في آخر الصيف، أو كثرة الجنوب والصّبا في الكانونين (ديسمبر ويناير)، أو كثرة علامات المطر في الشتاء دون أن تمطر، وأسباب أرضية كالماء الآسن والجيف الكثيرة، وأنه يقع كذلك في مواضع المعركة إذا لم يدفن القتلى، وبسبب التربة كثيرة التعفن، وكثرة الحشرات والضفادع[٦٨]. ويعترض السيوطي على ذلك وعلى فكرة تغير الأخلاط قائلا إن «كل داء بسبب من الأسباب الطبيعية له دواء من الأدوية الطبيعية، وهذا الطاعون قد أعيى الأطباء دواؤه حتى سلم حذاقهم أنه لا دواء له، ولا دافع إلا الذي خلقه وقدره[٦٩]».

ويحاول ابن حجر التوفيق بين رأي الأطباء، من جهة، وما ورد من الأحاديث ورأي رجال الدين من الفقهاء والمفسرين والمحدثين، من جهة أخرى، فيقول إن كون الطاعون «من طعن الجن لا يخالف قول الأطباء من كونه ينشأ عن مادة سمية أو هيجان الدم أو انصبابه إلى عضو أو غير ذلك، لأنه لا مانع من أن ذلك يحدث عن الطعنة فيحدث منها المادة السمية أو يهيج بسببها الدم أو ينصبّ[٧٠]». كذلك، يضيف، قد تكون بعض الأوجاع في الطاعون من غلبة الطبائع، ولا ينافي ذلك كونه من طعن الجن، لاحتمال أن يحصل ذلك التغير عند وجود الطعنة، فينزعج بدن المطعون، فيفور به الدم، وتحصل له الكيفية الرديئة التي شخصها الأطباء، بحسب ما اقتضته

٦٦. فكرة وخز أو طعن الناس بالطاعون معروفة في العهد القديم، فقد ورد في سفر الأيام رؤيا داوود للملك بيده سيف عندما نظر إلى السماء أثناء وباء الطاعون. سفر الأيام الأول، إصحاح ٢١.
٦٧. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص١٠٩-١٥٦، ٢٦٢؛ السيوطي، ما رواه الواعون، ص١٤٢-١٤٦، ١٥٠-١٥١.
٦٨. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص١٠٠-١٠١.
٦٩. السيوطي، ما رواه الواعون، ص١٤٧.
٧٠. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص١٠٤-١٠٥.

© IFAO 2026 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net

قواعدهم، ولا ينافي ذلك أصل سببه الأول[٧١]. ثم يقول إن «الأطباء معذورون لأن طعنة الجن أمر لا يدرك بالعقل ولا بالتجربة وإنما يدرك بتلقيه من الشارع[٧٢]».

ويرد ابن حجر على قول الأطباء إن السبب في حدوث الطاعون هو فساد الهواء بأنه لو كان بسبب ذلك لدام وجوده أو انتظم، ولعم جميع الناس والحيوانات، ولكنه يصيب البعض فقط، وبأن فساد الهواء يقتضي تغير الأخلاط وكثرة الأمراض، أما الطاعون فيقتل بلا مرض أو بمرض يسير، وبأنه لا دواء له بينما كل داء بسبب من الأسباب الطبيعية له دواء، ويستدل على ذلك بحديث الرسول ﷺ: «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله.» ويحاول ابن حجر مرة أخرى التوفيق بين كلام الأطباء والأحاديث فيذهب إلى أنه ربما كان الوباء على ضربين: ضرب منه يحدث بسبب غلبة بعض الأمشاج كالدم أو الصفراء إذا احترقت أو غير ذلك، بدون تدخل من الجن. والضرب الآخر بسبب وخز الجن.[٧٣] لكنه يرى أن السبب الرئيسي للطاعون هو وخز الجن، سواء كان الوخز من جن مؤمن أو جن كافر، ويذكر أن الجن الكافر يطعن المسلمين والجن المؤمن يطعن الكفار. وقد يطعن الجن الكافر المسلمين انتقاما من الجن المسلم[٧٤]، ثم يذكر الخلاف عن كون هذا الوخز رحمة أو عقوبة على المعاصي، فيذكر أن وخز الجن الذي يتسبب في الطاعون يكون بتسليط من الله تعالى عقوبة لمن يستحق العقوبة وشهادة ورحمة لمن هو أهل لها[٧٥].

ويرى ابن حجر أن السبب الحقيقي لحدوث الأوبئة هو انتشار الزنا، وأن الله يسلط الجن لإقامة حد الزنا على المصاب بهذا الطعن (أو الوخز)، فيموت الزاني المحصن ويتعذب غير المحصن، أو يحارب الجن الإنس لإظهارهم الفاحشة أو ترك إنكارها فيموتون ويبعث كل فرد على نيته.[٧٦] ولذلك، ينكر ابن حجر حدوث العدوى لحديث «لا عدوى ولا طيرة»، فيرى أن الأمراض لا تعدي بنفسها ولكن الله تعالى جعل مخالطة المريض بها للصحيح سببا لإعدائه مرضه، وقد لا تحدث العدوى، ويكون ذلك بمشيئة الله تعالى[٧٧].

٧١. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص١٠٨.
٧٢. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص١٠٨.
٧٣. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص١٠٥-١٠٧.
٧٤. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص١٤٠-١٤٤، ٢١٥.
٧٥. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص١٥٣.
٧٦. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص٢١٥-٢١٧.
٧٧. ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون، ص٢٩٢.

© IFAO 2026 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net

خاتمة

ومما سبق نرى أن تفسيرات المؤرخين في القرن الخامس عشر لحدوث الأوبئة اختلفت باختلاف خلفياتهم وانقسمت إلى قسمين رئيسيين: قسم تبناه المؤرخون الذين تلقوا – إلى جانب التعليم الديني الأولي – علوما وثقافات متنوعة، كالمقريزي وابن تغري بردي والصيرفي، إذ مالوا إلى التفسيرات الطبية والطبيعية السائدة في عصرهم، كنظرية الأخلاط الأربعة وتغير الأمزجة التي انتقلت من الطب اليوناني القديم إلى الأطباء المسلمين، وسادت في العصور الوسطى. وبالرغم من ميلهم إلى تفسير الأوبئة بالأسباب الطبية رووا تفسيرات أخرى هي التفسيرات الدينية والغيبية التي انتشرت في عصرهم، وعلى رأسها العقاب الإلهي؛ مما جعل مؤلفاتهم التاريخية تحتفظ لنا بالأفكار السائدة في العصر المملوكي والتي تأثروا هم أنفسهم ببعضها، وخاصة ما كان يستند منها إلى العلوم الزائفة كالتنجيم، بالإضافة إلى إبداء وجهة نظرهم فيها – ما بين مؤيد ورافض وناقد لها ولنتائجها السلبية على المجتمع –، وذلك كممثلين للطبقة المثقفة في هذا العصر.

أما القسم الثاني من تفسيرات حدوث الأوبئة فتلك التي احتفظت بها مؤلفات رجال الدين من المحدثين والمفسرين والفقهاء، كالسيوطي وابن حجر العسقلاني، والمعتمدة أساسا على الأحاديث والآثار المنقولة عن الرسول ﷺ وعن صحابته، والتي تعتمد اعتمادا تاما على الأفكار الغيبية كالجن والعقاب الإلهي على انتشار الزنا، وهي تفسيرات لم يتفرد بها رجال الدين الإسلامي بل تأثروا فيها بالكتاب المقدس (التوراة)؛ وقد رفض أصحابها الأفكار العلمية السائدة في العصور الوسطى أو حاولوا التوفيق بينها وبين الآثار الدينية مع الإصرار على صحة ما ورد فيها بشكل حرفي.

ويبدو واضحا من دراسة كل هذه المؤلفات التاريخية ومؤلفات رجال الدين أن التفسيرات الدينية لظهور الأوبئة، وخاصة فكرة العقاب الإلهي، كانت هي السائدة في المجتمع، وخاصة بين العامة ورجال الدين، مقارنة بغيرها من التفسيرات.

البيبليوغرافيا

١. المصادر

ابن إياس، بدائع الزهور
ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة، ١٩٧٢.

ابن تغري بردي، حوادث الدهور
ابن تغري بردي، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق م. ك. عز الدين، القاهرة، ١٩٩٠.

ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة
ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، ١٩٦٣.

© IFAO 2026 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net

جالينوس، شرح جالينوس من كتاب أبقراط
جالينوس، شرح جالينوس من كتاب أبقراط المسمى إفيذيميا: من المقالة ١ إلى ٣ (بترجمة حنين بن إسحق)، حققه وترجمه إلى الإنجليزية أ. فاجلبول، برلين، ٢٠١٤.

ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون
ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون في فضل الطاعون، تحقيق أ. ع. ع. الكاتب، الرياض، د. ت.

ابن سينا، القانون في الطب
ابن سينا، القانون في الطب، تحقيق م. أ. الضناوي، بيروت، ١٩٩٩.

السيوطي، ما رواه الواعون
السيوطي، ما رواه الواعون في أخبار الطاعون، تحقيق م. ع. الباز، دمشق، د. ت.

الصيرفي ١٩٧١-١٩٧٣
الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ج ١-٣ تحقيق ح. حبشي، القاهرة، ١٩٧١-١٩٧٣.

الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان
الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ج ٤، تحقيق ح. حبشي، القاهرة، ٢٠١٠.

المقريزي، السلوك
المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق م. م. زيادة، القاهرة، ١٩٥٨-١٩٧٣.

المقريزي، الخطط
المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية)، ٦ أجزاء، تحقيق أ. ف. سيد، لندن، ١٩٩٥.

٢. الدراسات

■ باللغة العربية

عطية ١٩٩٩
أ. ع. عطية، جالينوس في الفكر القديم والمعاصر، القاهرة، ١٩٩٩.

مصطفى عبد العظيم ٢٠٢٠
إ. مصطفى عبد العظيم، «غياب دور رجال الحكم والرعية في مواجهة أزمات وباء الطاعون في مصر زمن سلاطين المماليك: ٦٤٨-٩٣٢ هـ/١٢٥٠-١٥١٧ م. دراسة تحليلية»، مجلة البحث العلمي في الآداب، عين شمس (القاهرة)، العدد ٢١، ج ٨، ٢٠٢٠.

بيرن ٢٠١٤
ج. بيرن، الحياة اليومية في زمن الموت الأسود، ترجمة ع. س. الأيوبي، أبو ظبي، ٢٠١٤.

ساراتشي ٢٠١٥
ر. ساراتشي، علم الأوبئة، ترجمة أ. ف. حسن، القاهرة، ٢٠١٥.

الجعيدي ٢٠٠٢
ش. إ. الجعيدي، الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر في عصر المماليك الجراكسة، الاسكندرية، ٢٠٠٢.

واتس ٢٠١٠
ش. واتس، الأوبئة والتاريخ، ترجمة أ. م. عبد الجواد، القاهرة، ٢٠١٠.

حمودة ١٩٨٩
ط. س. حمودة، جلال الدين السيوطي عصره وحياته وآثاره وجهوده في الدرس اللغوي، بيروت، ١٩٨٩.

عنان ١٩٦٩
م. ع. عنان، مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٩.

© IFAO 2026 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net

■ باللغة الإنجليزية

Ayalon 2015
Y. Ayalon, *Natural Disasters in the Ottoman Empire*, Cambridge, 2015.

Dols 1977
W.M. Dols, *The Black Death in the Middle East*, Princeton, 1977.

Hanska 2002
J. Hanska, *Strategies of Sanity and Survival: Religious Responses to Natural Disasters in the Middle Ages*, Helsinki, 2002.

Sarton 1943
G. Sarton, « Remarks on the Theory of Temperaments », *Isis* 34, 3, 1943, p. 205-208.

© IFAO 2026 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net